﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ [سبأ: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بدلَ الشُّكرِ والعرفانِ كان الإعراضُ والجُحودُ والنُّكرانُ

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ ما كان من إحسانِه إلى قومِ سبأ، وكثرةِ النِّعم عليهم بالرِّزق والجنتين، فأضحتْ بلدتُهم بلدةً طيبةً، واستوجبَ ذلك أنْ يكونوا شاكرين له؛ ذكرَ ما كان من جانبهم في مقابلته من البَطَرِ والإعراضِ وعدمِ الشُّكر، فقال: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾: (عرض) أصلُه من العَرْضِ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، ومنه: أَعْرَضَ عَنْ فُلانٍ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ: ولّاهُ عَرْضَهُ، ويُقالُ: أَعْرَضَ لَكَ الشَّيْءُ مِنْ بَعيدٍ: ظَهَرَ لَكَ وبَدا؛ أيْ: رَأَيْتَ عَرْضَهُ[2]، وقيل: أعرضَ: أظهرَ عُرضَه؛ أيْ: ناحيته، وأعرضَ عنّي: ولّى مُبديًا عُرضَه[3]، وأعرضَ عن فلانٍ كأنّه انحرفَ عنه وولّاه عُرْضه؛ أيْ: جانبه أو عارِضَه[4]، والمعنى في الآية: فأَعْرَضوا عَنِ الاسْتِجابَةِ لدَعْوَةِ التَّوْحيد[5].

2) ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾: (سيل) أصلٌ يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتِدادٍ، يُقالُ: سالَ الماءُ وغَيْرُهُ يَسيلُ سَيْلًا وسَيَلانًا[6]، والسَّيْلُ مَعْروفٌ، وجَمْعُهُ: سُيولٌ، وهو الماءُ الكَثيرُ السّائِلُ الجاري الذي لا يُضبَطُ دفعُه لعِظَمِه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 534، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرض).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).

ويُطلَقُ السّيلُ على المُجتَمِعِ مِنَ المَطَرِ الجاري في الأَوْدِيَةِ[1]، والعَرِمُ من (عرم) وأصلُه يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وحِدَّةٍ، وعُرامُ الجَيْشِ: شِرَّتُهُ وحَدُّهُ وكَثْرَتُهُ، وقيل: العَرِمُ هو المطرُ الشّديدُ والسَّيْلُ الَّذي لا يُطاقُ، والعَرِمَةُ: السِّكْرُ والمُسَنّاةُ، وجَمْعُها عَرِمٌ؛ لِأَنَّ الماءَ إذا سُكِرَ كانَ لَهُ عُرامٌ مِنْ كَثْرَتِهِ[2]، وقيل: هو اسمُ الوادي، وقيل: اسمُ حيوان الخُلْدِ الذي نقبَ السّدَ حتّى فُتِحَ، وسالَ ماؤهُ فأغرقَ ديارَهم وأهلكَ بساتينهم، وقيل: العَرِمُ الجُرَذُ الذَّكَرُ، ونُسبَ إليه السّيلُ من حيث إنّه نَقَبَ المُسَنّاة[3].

3) ﴿خَمْطٍ﴾: (خمط) أصلٌ يدلُّ على الانْجِراد والمَلاسَة، ومنه الخَمْطُ، وهوَ كُلُّ شَيْءٍ لا شَوْكَ لَهُ[4]، وقيلَ: الحامضُ، وقيلَ: المُرُّ من كُل شَيْءٍ[5]، وقيل: أكلُ شجرٍ له ثمرٌ ذو مرارةٍ، وكلّ ما أخذَ طعمًا من مرارةٍ حتّى لا يمكنُ أكلُهُ فهو خمطٌ، وقيل: ضَرْبٌ مِنَ الأَراكِ لَهُ حَمْلٌ يُؤْكَلُ[6]، والمعنى المحوريّ للخمط: هو فقدُ الشّيء طيبَه أو عدمُ قبولِ النّفس له[7]، ومعنى ﴿خَمْطٍ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: شجرُ الأراك والشّيءُ المُرّ[8].

4) ﴿وَأَثْلٍ﴾: (أثل) أصلٌ يَدُلُّ على أساس الشَّيْءِ وتَجَمُّعِه، يُقال: أَثَّلَ اللّهُ مالَهُ؛ أيْ: كَثَّره، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ أَصلٌ قَديمٌ، أَو جُمِعَ حَتَّى يَصيرَ لَهُ أَصلٌ فَهوَ مُؤَثَّل، والأَثْلُ: شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفاءَ إلّا أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْهُ وأَجْوَدُ عودًا مِنْهُ، تُصْنَعُ مِنْهُ الأَقْداحُ الجيادُ، ومِنْهُ اتُّخِذَ مِنبرُ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ رَسولُ اللّهِ ﷺ[9]، ومعنى الأثل في الآية موافق للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: شجرُ الطّرفاء، أو شبيهٌ بالطّرفاء غيرَ أنّه أعظم منه[10].

5) ﴿سِدْرٍ﴾: (سدر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى شِبْهِ الحَيْرَةِ واضْطِرابِ الرَّأْيِ[11]، والسِّدْرُ اسْمٌ لِلْجِنْسِ، واحِدَتُها: سِدْرَة، وهو شجرٌ قليلُ الغناءِ عند الأكلِ، وقد يُخضدُ ويُستظلُّ به،

(1) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 137، والفيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سيل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (عرم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمط).
(5) ابن سيده، المحكم: (خمط).
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خمط).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خمط).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أثل).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سدر).

والسِّدْرُ مِنَ الشَّجَرِ سِدْرانِ؛ أَحدهما: بَرّيّ لا يُنْتَفَعُ بِثَمَرِه، ولا يَصْلُحُ ورَقُهُ للغَسولِ، ورُبَّما خَبَط ورَقَها الرّاعيةُ، وثَمَرَهُ عَفِصٌ لا يُسَوَّغُ في الحَلْقِ، والعَرَبُ تُسَمّيهِ الضّالَ، والسِّدْرُ الثّاني: يَنْبُتُ عَلَى الماءِ وثَمَرُهُ النَّبْقُ، ووَرَقُهُ غَسولٌ يُشْبِهُ شَجَرَ العُنّاب، لَهُ سُلّاءٌ كَسُلّائه، ووَرَقُهُ كَوَرَقِه، غَيْرَ أَنّ ثَمَرَ العُنّابِ أَحمرُ حُلْوٌ، وثَمَرُ السِّدْرِ أَصفرُ مُزٌّ يُتَفَكَّه بِه[1]، والمقصود بالسّدر هنا: شَجَرٌ مِنَ العِضاهِ لَهُ شَوْكٌ يُشْبِهُ شَجَرَ العُنّابِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـإعـراضـهـم عـن الـعـبـوديَّـةِ والـشُّـكـرِ؛ تحوّلتِ النِّعمةُ إلى نِقمةٍ

استعانوا بنعمةِ اللّهِ على معصيته، واستغنَوا بفضلِه عن عبادته، وبعد أنْ حذَّرهم وأنذَرهم على لسانِ رسله، أَعرضَ قومُ سبأ عن طاعةِ ربِّهم، وصدّوا عن اتِّباع ما دعتهم إليه رسلهم من أنَّه خالقُهم[3]، ولم ينتفِعوا بالنُّذر، ولم يتعِّظوا بالعِبَر، فأَرسلَ اللّهُ تعالى عليهم سيلًا كثيرًا خرَّبَ سدَّهم، وذهبَ بالجنانِ والبساتين، وأهلكَ الحرثَ والنَّسل[4]، وأبدلهم بالحدائق الغنّاءِ والبساتين الفيحاءِ أشجارًا لا تُسمنُ ولا تُغني من جوعٍ، كالسِّدر وغيرِه ممّا ينبتُ في الصَّحراء، ولا يستَسيغُهُ إلّا حيوانٌ جائعٌ، أو إنسانٌ أضناهُ الفقرُ والعَوَزُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾:

سـرعـةُ إعـراضِ سبأ وكُفرهم، دلـيـلٌ عـلى شـدّةِ بطرهم وطغيانهم

الفاء في قوله: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ قد تكون عاطفةً[5]، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ القولِ المُقدّر[6]؛ والمعنى: "أنَّهم مع هذه النَّعَم من جَنّاتٍ وبَساتينَ عَظيمةٍ وبلَدٍ طَيِّب ومَغفِرةٍ للذّنوب، أعرضوا عن الشُّكر، وقابَلوا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 70.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 81، ودعاس، إعراب القرآن: 3/ 16.
(6) علوان، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1879.

هذه النِّعْمةَ بالكُفْر"[1]، وتُفيدُ الفاءَ معنى التّعقيب والتّرتيب[2]، وسرعةُ إعراضِهم وترتُّبه على إنعامِ اللّهِ يدلُّ على شدّةِ بطرهم وطغيانهم.

البطر بالإعراض عن الشّكر جحودٌ

وتفيدُ الفاءُ كذلك تفريعَ إعراضهم على قوله سبحانه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾، وهذا التّفريعُ وقعَ اعتراضًا بين أجزاءِ القصَّةِ الّتي بقيّتُها قولُه سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى﴾[3]، وتفيدُ معنى السّببيّة على تقديرِ محذوف، وهو (فبَطَروا)؛ أيْ: ولمّا تسبّبَ عن هذا الإنعامِ بطرُهم الموجِبُ لإعراضهم عن الشّكر؛ دلّ على ذلك بقوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾[4]، أو أنّها فاءُ الفصيحة؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّر، تقديرُه: إذا عرفتَ ما قيلَ لهم، وأردتَ بيانَ ما فعلوا بعد ذلك، فأقولُ لك: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾[5].

دلالةُ التّعبير ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

تنوّعُ معاني الإعراضِ وملائمتُه لحالهم يدلُّ على شدّةِ بطرهم وكفرهم وكفرانهم

عبَّر القرآنُ بالإعراضِ في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ دونَ غيرِه من الألفاظ كالتّولّي أو الرّفض؛ لكونِ لفظ الإعراضِ أوسعَ دلالةً، وأنسبَ مع حالهم؛ فإنّ من معاني الإعراض: الصّدُّ، والتَّوَلّي، وتَركُ العمل، والامتناعُ، والرَّفضُ، والإهمالُ، والتّركُ مع التّجاهل وعدمِ الاكتراث، فالإعراضُ أشدُّ من التّولّي، وفيه إساءةُ أدبٍ مع مَنْ أعرضَ عنه، وهذه المعاني تتناسبُ مع حالهم، وهذا التّنوّعُ والكثرةُ في المعاني فيه دلالةٌ على شدّةِ طغيانهم وبطرهم، وأمّا التّعبيرُ بالإعراض بصيغة الماضي ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقّقِ الإعراضِ منهم ووقوعه، ومن ثَمّ استحقاقُهم للعذابِ، بالإضافةِ إلى أنّه في سياقِ حكايةِ قصّة سبأ، وهي أحداثٌ وقعتْ وانقضتْ.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 133.
(2) الهلال، تفسير القرآن الجامع: 22/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.

دلالة التّعبيرِ بالضّمير وإسنادُه في: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾:

تَوافُقُ قومِ سبأ في إعراضِهم وكفرِهم باللهِ وكفرانِهم النِّعَم قولًا وعملًا

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ إلى الضَّمير (واو الجماعة) في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾؛ اختصارًا وبُعْدًا عن الإطالة؛ فقد ذُكِرَ الفاعلُ مُصرَّحًا به في الآية الَّتي قبلها، وهم قومُ سبأ الّذين تتحدَّثُ الآياتُ عنهم، وأسندَ فعلَ الإعراضِ إلى واو الجماعة؛ إشارةً إلى اجتماعهم على الباطلِ، وتوافقِ حالهم في تحقُّقِ الإعراض منهم جميعًا قولًا وعملًا، بعد أنْ أنعمَ اللّهُ عليهم بالجنَّتين وبالبلدةِ الطَّيّبة، فلمّا كان الإعراضُ صادرًا من الجميع كان العقابُ واقعًا على الجميع، كما أنّ جميعَ الضّمائر في سياقِ قصّةِ سبأ كانت بصيغة الجماعة.

غرض حذف متعلّق الفعل ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾:

إعراضٌ عن كلِّ واجبٍ وعُبوديَّةٍ وشُكر

حذفَ النَّصُّ القرآنيّ متعلَّقَ الفعلِ في قوله: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ اختصارًا؛ للعلمِ به؛ فقد سبقَ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ إذ أُمروا بالشّكر، والتّقدير: فأعرضوا عن شكرِ اللّه؛ إذِ اعتقدوا أنّهم يأكلون من سعيهم ومهارتهم، ولم يشكروا اللّهَ على هذه النِّعم؛ لأنَّ النِّعمَ أترفتهم فنَسوا شكرَها[1]، وكذلك أفادَ حذفُ المتعلّق العمومَ؛ ولو ذَكرَ أحدَ هذه المعاني لاقتصرَ عليه، ولذا تنوّعتْ تقديرات المفسّرين له، فمنها: فأعرَضوا عن طاعةِ ربّهم واتّباعِ ما دعتهم إليه رسلُه[2]، وأعرضوا عن الشُّكر[3] بعد إبانةِ الآيات الدّاعيةِ لهم إليه، وتصديقِ الرّسل[4]، وأعرضوا عن الإيمان[5]، وأعرضوا عن العمل الصّالح، والتّصرّفَ الحميد فيما أنعم اللّهُ عليهم[6].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12297.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 325.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 85.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 535.

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

إعـراضٌ وجحودٌ استَوْجَبَ عقوبةً وتأديبًا

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ عاطفةٌ، تُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيب والفوريَّة[1]، كلٌّ بحسبه، أي: ترتّبتْ عقوبةُ السّيلِ والتّبديلِ على الإعراض، وجاءتْ عقِبَه، وتفيدُ كذلك السّببيّةَ؛ لأنّ هذه العقوبةَ كانتْ بسببِ إعْراضهم[2]، وهذه سُنَّةُ اللّه في خَلْقه، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل: 112]، فهؤلاء أَعرَضوا، فدمَّرَ اللّه تعالى ديارهم[3]، وإضافةً لِما سبق، فهي تفيدُ كذلك تفريعَ إصابةِ قومِ سبأ بهذه المصائب من السّيلِ والتّبديلِ على إعراضهم وعتوّهم وعنادهم[4].

دلالة التّعبير بـ (الإرسال):

السّيلُ المنبعثُ الممتدُّ الموجّهُ المسلّطُ رسالةُ عـذابٍ من اللهِ لقومِ سبأ

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بالإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، دونَ غيره من الألفاظ كالإطلاق والتَّفجير؛ مناسبةً للسّياق؛ لأنَّ الإرسالَ يدلُّ على الانبعاثِ والامتداد[5]، ومن معانيه: البعثُ والتَّسليطُ والتَّوجيهُ والإطْلاقُ[6]، والإرْسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها[7]، فالسّيلُ رسالةُ عذابٍ مُرسلةٍ من اللّهِ تعالى على إعراضهم وكفرهم وعدمِ شُكرهم، فسلّطَ اللّهُ السَّيلَ الجارفَ الَّذي يَحملُ في طريقه الحجارةَ لشِدَّةِ تدفُّقه، ووجَّهَهُ فحطّمَ السَّدَّ، وانساحتْ المياه فطغتْ وأغرقتْ، فالإرسالُ هنا أنسبُ مع السّياق؛

(1) الهلال، الثّريّ الجامع: 22/ 59.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 41، وابن عُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 133.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 69.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (رسل).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

إذِ السّيلُ لا يُشترطُ أنْ يكون محبوسًا، فربّما كان نتيجةَ مطرٍ شديدٍ كثير[1]، أو اجتمعَ فيه الأمران: حبسُ السّدّ، وماءُ المطر.

غرضُ إسناد (الإرسال) إلى ضمير العظَمة:

إرسـالُ السّيلِ المُدمِّر مَظْهَرٌ من مظاهرِ عقابِ المُرسِلِ العظيمِ سبحانه

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (أرسل) إلى اللّهِ تعالى مُعبِّرًا عنه بضميرِ العظَمة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؛ ليُشْعِرَ بعظَمةِ المُرسِل سبحانه وعظَمةِ هذا السّيلِ الشّديد الكثيرِ، المتناهي في الأذى الذي لا يَرُدُّهُ شيءٌ، ولا تمنعُهُ حيلةٌ بسَدٍّ ولا غيرِه من العَرامة[2]، ويُفيد التّأكيدَ على أهمّيّة المضمونِ، وهو رسالةُ العذابِ، وأنَّ الإرسالَ لا شكَّ فيه ولا ريبَ، وأنَّه محيطٌ بهم، ومُرَتَّبٌ عليه أثرُهُ من العذابِ والتّنكيلِ بهم.

معنى (على) ودلالتُها في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

في الاستعلاءِ تجليَةٌ لمعنى الإرسالِ بالعقوبةِ والنّقمة

تعديةُ فعل ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بحرف الاستعلاءِ (على) - الذي يعطي معنى الفوقيّة والقوّة والتّسليط بكونه إرسالًا من فوق - مؤذنٌ بأنّ الإرسالَ إرسالُ نقمةٍ لا رحمة[3]؛ لأنَّ سيلَ العَرِم إمّا أنّه كان محبوسًا بالسَّدِّ في مأرب، فلمّا كفروا باللّه قدّرَ اللّهُ لهم أسبابَ انهدامِ السّدّ، فاندفعَ ما فيه من الماء؛ فكان لهم غرقًا وإتلافًا للأنعامِ والأشجار[4]، أو أنّه سبحانه سيّحَ المطرَ الغالبَ المُؤذي الشّديدَ الكثيرَ الحادَّ الفعلِ، المتناهي في الأذى الذي لا يَرُدّه شيء، ولا تمنعهُ حيلةٌ بسَدّ ولا غيره، فأفسدَ عليهم جميعَ ما ينتفعون به[5]، كما أنّ حرفَ (على) دلَّ على أنَّ جملة ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ مُفرَّعةٌ تفريعَ العقابِ، لا تفريعَ زيادةِ الآياتِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 478.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 69.

دلالة التّعبير بـ ﴿سَيۡلَ﴾ دون (صيّب):

سيلٌ مُمتدٌّ جارٍ لا يحولُ أمامَه حائلٌ

اختارَ النَّصُّ القرآنيُّ كلمةَ السَّيل في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾؛ لأنَّ السَّيلَ في اللّغة يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتدادٍ[1]، والسَّيْلُ: هو الماءُ الكَثيرُ السّائلُ الجاري الذي لا يُضبطُ دَفْعُه لعظَمِه، ويُطلَقُ أيضًا على المُجْتَمِعِ مِنَ المَطَرِ الجاري في الأَوْدِيَةِ[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع جريانِ الماء الكثيرِ واندفاعه، سواءٌ من سدٍّ أو من مطرٍ، والذي لم يمكنهم دفعُه، فأغرقَ ديارَهم وأهلَكَ بساتينهم، وهذا لا يتحقَّق في الصَّيّب؛ الذي يدلُّ على نزولِ شيء واستقرارِه قرارَه، أو يُطلق على السّحابِ ذي الصّوب[3]، وهذه المعاني لا تُحقّق القَصدَ من سَوْق الآية، ولا تتناسبُ مع الإرسالِ والاستعلاء، والمراد من أنَّ اللّهَ ﷻ سلّطَ عليهم سيلًا جعلَ فيه نقمتَه وعذابَه عليهم.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾، ومعنى (اللّام) ودلالتُها فيه:

سيلٌ معهودٌ اجتمعَتْ فيه الشِّدَّةُ والقوّةُ والشَّراسةُ والبأس

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ لاتّساعِ دلالته ومناسبته للسّياقِ والمقام؛ إذ يدلُّ أصلُه على الشِّدّةِ والحِدّةِ والكثرةِ والشّراسةِ والصّعوبة[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع شدّةِ العذابِ وحِدّته وكثرته، وتتناسبُ مع كلّ التفسيرات التي ذكرها المُفسِّرون من كونهِ المطرَ الشّديدَ الكثيرَ، أو السّيلُ العظيم، أو هو السِّكْرُ والمُسَنّاةُ، أو الحجارةُ المركومةُ العظيمةُ، أو اسمُ الوادي الكبير العظيم الواسع، وفي هذه المعاني دلالةٌ على سطوةِ عذابِ اللّهِ المنتقمِ وسطوته ﷻ.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾:

لامُ التَّعريف في ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ عهديَّةٌ، معهودُها ذِهنيٌّ، فسَيْلُ العَرِمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).
(2) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 137، والفيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سيل).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 127.

سيلٌ معهودٌ معروفٌ عند العرب بأنّه السّيلُ الذي كان سببَ إغراقِ ديارِ أهلِ سبأ وإهلاكِ جنّانهم.

سرّ إضافة ﴿سَيۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾:

بيانٌ للسّيلِ الشّديدِ القويّ الذي أرسلهُ اللهُ عذابًا على أهلِ سبأ

إضافةُ الـ ﴿سَيۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ في الآية؛ إمّا من بابِ إضافةِ المُسمَّى إلى الاسم، بأنْ يكون العَرِمُ اسمًا للسّيلِ الذي كان ينصبُّ في السّدّ، والتّقدير: أرسلنا السّيلَ العَرِمَ، أو من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صفته، والتّقدير: أرسلنا السّيلَ العَرِمَ؛ أي: الشّديدَ[1]، أو من بابِ إضافته إلى محذوفٍ وإقامةِ الصّفةِ مقامَه، والتّقدير: أرسلنا عليهم سيلَ المطرِ العَرِم؛ أي: الشّديدِ الكثيرِ، فالعَرِمُ صفةٌ للمطر[2]، أو أنْ تكون الإضافة بأدنى ملابسة، وفي الإضافةِ بكافّة أنواعها بيانٌ للسّيلِ الشّديدِ الذي أرسله اللهُ على أهلِ سبأ فأهلكهم؛ إذ لفظُ ﴿سَيۡلَ﴾ نكرةٌ مبهمةٌ تحتاجُ إلى بيانٍ، فأضافَ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ لبيانِ وتعريف السّيلِ، وإظهارِ قوّته وشدّته.

غرض تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

بكفرِهم وإعراضِهم كان العذابُ عليهم دونَ غيرِهم

قدّم النَّصُّ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، لإفادةِ الحصرِ، وهو أنَّ اللهَ سبحانه اختَصَّهم بالعقابِ والنِّقمة دونَ غيرهم، وللاهتمامِ بالمُقدَّم لفتًا للانتباهِ إليه، وتنبيهًا على أنّ إعراضَهم هو الَّذي أوصلَهم إلى إرسالِ السَّيلِ العرِم عليهم، وأنّهم لو شكروا وعبدوا اللهَ لَما أرسلَ اللهُ عليهم عقوبةً، ولا حَرمَهم الجنَّتين، وفي هذا مزيدُ ترهيبٍ وتخويفٍ لمَن يأتي بعد سبأ؛ كي يعتبرَ بما حلّ بهم.

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم﴾:

اجتماعُ العقوباتِ الإلهيّة على قومِ سبأ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 535.

عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾[1]؛ بجامع أنّ كليهما عقوبةٌ من الله على أهلِ سبأ؛ فالأولى: إغراقُهم بالسّيلِ العَرِم، والثّانية: تبديلُ جنانِهم جنّتين ذواتَي أُكلٍ خَمطٍ وأَثلٍ وشيءٍ من سِدرٍ قليلٍ، وفي العطفِ اجتماعٌ لأكثرِ من عقوبةٍ إلهيّةٍ عليهم؛ بما يدلُّ على شدّةِ العذابِ واستحقاقهم له.

دلالة التّعبير (بالتّبديل):

بـــدّل الـلـهُ حـالَ الجنّتين وأعـطـاهـم جنتين قاحلتين عقبَ إعراضِهم وكفرهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (بَدّلَ) في قوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ دونَ لفظ (غيّر)، فلم يَقُلْ: (وغيَّرنا جنتيهم)؛ لكون لفظِ التّبديل أعمَّ من التّغيير، وأنسبَ للسّياق والمقام؛ فالتّبديلُ عامٌّ في أخذِ شيءٍ وإعطاءِ شيء[2]، إذ أصلُ معناه هو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِب[3]، ومن معانيه: العِوَضُ، والخَلَف[4]، وكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع قصّة سبأ، حيثُ بدّل اللهُ حالَ جنّتيهم، فأخذَ منهم الجنتين الوارفَتين، وأعطاهم جنتين قاحلتَين عقبَ إعراضهم وكُفْرِهم، وكأنّه عِوضٌ عن كُفْرانهمُ النّعمةَ تهكّمًا وتوبيخًا لهم، بينما التّغييرُ لا يدلّ على كلّ هذه المعاني؛ إذ أصلُه يدلّ على اختلافِ شيئين[5].

غرضُ الإسناد إلى ضمير العظَمة في ﴿وَبَدَّلْنَاهُم﴾:

عـــذابُ الـلـهِ عظيمٌ، وعقوبتُه شديدةٌ أليمةٌ

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (التّبديل) إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ ليُضفيَ الجلالَ والهيبةَ على النّفوس، وليُشيرَ إلى عَظَمَةِ عقوبةِ المَحْقِ والتّبديل بعد ما كانوا فيه من النّعم، والتّقدير: (بدّلناهم بما لنا من العَظَمَة)، وهذا يتركُ الأثرَ الكبيرَ في التّنكيلِ بهم، والتّهديدِ لمَنْ يأتي بعدَهم إذا فعلوا فعلَهم، وأعرضوا عن الإيمان بالله والشّكرِ له على نِعَمه وآلائه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/ 418.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

بإعراضِهم بدلّهمُ اللهُ بجنتيهم أشجارَ خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدر

الباءُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ حرفُ جرٍّ، وهي داخلةٌ على المتروك، وانتصبَ ما كانَ بدلًا، وهو قوله: ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ على المعهودِ في لسانِ العرب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [البقرة: 108][1]، وهي باءُ العوض، والمعنى: (أعطيناهم أشجارَ خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدرٍ عِوَضًا عن جنتيهم)، وفيما بين هذَين الحالين أحوالٌ عظيمة انتابتهم[2]، ويمكن أنْ تُفيدَ الإلصاق؛ أي: التّبديلُ ملتصقٌ بجنّتيهم، ويكون العوضُ مُستفادًا من لفظ ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ﴾[3].

نُكْتَةُ الإظهارِ في مقام الإضمار في ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

في التّصريحِ بجنّتيهم تذكيرٌ للتّحسّرِ، ومقابلةٌ للاستهزاءِ والتّهكّم

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الجنَّتين في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾، ولم يَقلْ: (بدَّلناهم بهما) رغمَ سبقِ ذِكْرهما في قوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ﴾؛ وذلك تذكيرًا بجنّتيْهم وما تضمّنتا من رزقِ ربّهم ونِعَمِه، وفي هذا زيادةُ تحسيرٍ لهم، وإظهارٌ لكمالِ المقابلة والبونِ الشّاسع بين الجنّتين الوارفتين والجنّتين القاحلتين، وهذا يُعطي معنى التّهكُّم والاستهزاء بهم.

غرض الإضافة في قوله: ﴿بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾:

في التّذكيرِ بمُلكِهم وحيازتِهم لجنَّتَي النَّعيمِ زيادةُ حسرةٍ وألمٍ وعذابٍ لهم

أضافَ النَّصُّ القرآنيُّ الجنَّتين إلى قوم سبأ في قوله: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ﴾؛ تذكيرًا لهم بما أكرمهم اللهُ به من تمليكهم لنِعَمِ الجنّتين، وإقدارهم على كمالِ الانتفاعِ بهما؛ وذلك ليزيدَ الحسرةَ عليهم، وليشعروا بعِظَمِ ما فقدوا، وما صدرَ عنهم من بَطرِ النّعمِ وكفرانها، والتّسبُّبِ في إضاعتها، وذلك حين ينظرون إلى جنَّتيهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) زيدان، اختلاف الأوجه والمعاني، ص: 166.

الذّاهبتين، ثمَّ إلى هاتين الجنَّتين اللَّتين بين أيديهم، فلا يرون فيهما غيرَ النَّباتِ الخسيسِ، الَّذي تعافُ رعيَه الأنعامُ[1].

بلاغة المشاكلة في البديلَيْن ﴿جَنَّتَيْنِ﴾:

جاء البيانُ الإلهيّ في قوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ بذِكْرِ بدلِ جنّتَيْ النَّعيم بأنَّهما جنّتان، ولم يَقُلْ: (وبدلناهم بجنّتيهم أرضًا قاحلةً ليس فيها إلّا شجرُ العِضاهِ والباديةِ)[2]، مع أنّ أشجارَ البوادي لا تُسمّى جنَّةً وبستانًا؛ وذلك على سبيلِ المشاكلةِ وازدواجِ الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشّورى: 40]، ولِما في هذا التّعبيرِ من تهكُّمٍ واستهزاءٍ بهم[3]؛ لكونهم بَطَروا نعمةَ الجنّتين اللّتين أنعمَ اللّهُ بهما، وفيه أيضًا تحسيرٌ لهم بتذكيرهم بالجِنانِ التي ضيّعوها بكفرهم وكفرانهم.

في مقابلةِ الجنَّتين بالجنَّتين زيادةُ تهكُّمٍ واستهزاءٍ وتحسير

نُكْتَةُ وصف ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بـ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾:

وصفَ البيانُ الحكيمُ الجنّتين بـ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾؛ تقييدًا وبيانًا للجنّتين بأنّهما ليستا جنّتين على الحقيقة، وإنّما هما في غايةِ ما يكون من مضادّةِ جنّتيهم، ولذلك فسّرهما بالوصفِ؛ إعلامًا بأنّ إطلاقَ الجنّتين عليهما مشاكلةٌ لفظيّةٌ للتّهكّم بقومِ سبأ[4]؛ لأنَّهما صارتا أرضًا قاحلةً ليس فيها إلّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ[5].

في قوّةِ وصفِ الأرضِ بالقاحلة نفيٌ لأيّ شَبَهٍ بالجنانِ التي أُبدلتْ

والوصفَ بلفظ: ﴿ذَوَاتَىْ﴾ - وهو بمعنى: صاحبتَي - يدلُّ على شدّةِ اتّصافِ الجنّتين بهذه الصّفات؛ لأنّ الوصفَ بـ(ذو) أبلغُ من الوصفِ بـ(صاحب)، فإنّ (ذو) يُضافُ إلى التّابعِ، و(صاحب)

سبحانَ مَن يُغيِّر ولا يتغيَّر

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 799.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 245، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 291.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.

يُضافُ إلى المتبوع[1]، وفي قوّةِ هذا الاتّصاف نفيٌ لأيّ شَبَهٍ بالجنانِ التي أُبدلتْ بها هاتان الجنّتان.

دلالةُ جمع (ذوات):

الجمعُ والتّعدادُ لصفاتِ الأرضِ القاحلةِ التي أُبدِلوها زيادةُ تحسيرٍ لقومِ سبأ

(ذوات) جمعُ (ذات) التي بمعنى صاحبة[2]، والتّعبيرُ بصيغة الجمع في الوصفِ بها في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ﴾؛ مراعاةً لتعدّدِ الصّفاتِ في الآية، وهي: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، أيْ: جنّتين ذواتي أشجارِ خَمْطٍ وأثلٍ وشيءٍ قليلٍ من سدرٍ[3]، وفي هذا الجمعِ والتّعدادِ لهذه الصّفاتِ للأرضِ القاحلة التي أُعْطوها بدلَ جنانٍ عظيمةٍ كانوا قد أنعموا بها؛ زيادةُ تحسيرٍ لقومِ سبأ.

غرضُ الإضافةِ ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾:

الإبدالُ إلى الأسوأ أكثرُ تحسيرًا من الإزالةِ

الإضافةُ في ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾ إضافةٌ بيانيّةٌ؛ بيَّنتْ الإبهامَ في لفظ ﴿ذَوَاتَيْ﴾ بأنّ الجنّتين ذواتا أشجارِ خَمْطٍ وأَثْلٍ وسِدرٍ؛ أيْ: ليستا خاويتيْن على عروشهما، وأرادَ بذلك أنْ يُذكّرهم ويُريهم بأمّ أعينهم قدرتهُ سبحانه على إهلاكِ أشجارهم المُثمرة، وإبدالها بأشجارٍ لا ثمارَ لها؛ لتكون عليهم حسرةً.

لطيفة التّعبير بمُفرَدة ﴿أُكُلٍ﴾:

إطلاقُ الأكلِ على ما لا يُؤكلُ مُشاكَلةٌ للتَّهكُّمِ بقومِ سبأ

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿أُكُلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ﴾، والخَمطُ والأَثْلُ وبعضُ السِّدر ليس أُكُلًا؛ أيْ: لم يَقُلْ: (جنّتين فيها خَمْطٌ وأَثْلٌ وشيءٌ من سِدرٍ قليلٌ)؛ وذلك للمشاكلةِ اللّفظية التي يُقصَدُ بها التّهكمُ بهم، وزيادةُ تحسّرهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21].

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.

تنوّعُ القراءات في ﴿أُكُلٍ﴾ وثراءُ المعنى:

قرأ نافعُ وابنُ كثير ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بضمّ الهمزة وسكونِ الكاف، وقرأه باقي العشرة بضمّ الكاف على اختلافهم بحركة اللّام، فقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾، وقرأ الباقون ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، وكلاهما بمعنى المأكول[1]، وهو الثَمرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: 265]؛ أيْ: ثمرها[2]، فالجمهورُ بتنوين اللّام ﴿أُكُلٍ﴾ مجرورًا؛ أيْ: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، فإذا كان ﴿خَمْطٍ﴾ مُرادًا به الشّجر المسمّى بالخَمْط، فلا يجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَمْطٍ﴾ صفةً لـ﴿أُكُلٍ﴾؛ لأنّ الخَمْطَ شجرٌ، والأُكُل اسم للمأكول، ولا أنْ يكونَ بدلًا من ﴿أُكُلٍ﴾ كذلك، ولا عطفَ بيان؛ لأنَّ عطفَ البيان كالبدلِ المطابق، فتعيّن أنْ يكون ﴿خَمْطٍ﴾ هنا صفةً، يُقال: شيءٌ خامطٌ إذا كان مُرًّا.

قراءةُ التّنوينِ أقعدُ في التّهكّمِ من قراءةِ الإضافة، وفي أكل المُرِّ تعذيب للنَّفس شديدٌ

وعلى قراءة أبي عمرو ويعقوب بالإضافة إلى الخَمْط؛ على أنّه شجرُ الأراكِ، وأُكُلُهُ: ثَمَرُهُ، وهو البريرُ، وهو مرُّ الطَّعم[3]، وهو من إضافةِ الثّمرةِ إلى الشّجرة، مثل: تمرُ نخلٍ، وعنبُ كرم[4]، وبناءً على ذلك فإنّ قراءةَ التّنوين أقعدُ في التّهكم من قراءةِ الإضافة[5].

دلالة التّعبير بمفردة ﴿خَمْطٍ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿خَمْطٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، ولم يقلْ: ذواتَي أُكُلٍ مُرٍّ من كُل شَيْء[6]، أو حامضٍ، أو لهُ شوكٌ[7]، أو غيرُ ذلك ممّا يدلّ عليه معنى خَمْط؛ وذلك إيجازًا في التّعبير وثراءً

ثراءُ معنى الخَمْطِ يتناسبُ مع سياقِ العذابِ وحالِ المُعذَّبين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 172.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 479.
(6) ابن سِيده، المُحكم: (خمط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمط).

في المعنى، إضافةً إلى كونِ الخَمْطِ مُشتركًا بين البهائمِ والإنسان في الأكلِ والتّجنّبِ[1]، ممّا يُشيرُ إلى ما أعدّ اللّهُ لقومِ سبأ من تحقيرٍ وإهانةٍ، ومع سياقِ العذابِ وغرضِه منَ التّبكيتِ والتّهكّم والتّحسير؛ لإقامةِ المقارنة بين ما كانوا عليه من نعيمِ الجِنانِ، وما حلَّ بهم، ومع حالِ المعذَّبينَ المستحقينَ لهذا العذاب.

نُكْتَةُ تعديدِ الأوصاف ﴿خَمْطٍ﴾، ﴿وَأَثْلٍ﴾، ﴿سِدْرٍ﴾:

مبالغةٌ في التّنفير وزيادةٌ في التّحسير

لم يقلْ سبحانه: (وبدلناهم بأرضٍ قاحلةٍ ليس فيها إلّا شَجرُ العِضاهِ والبادية)، وإنّما عدّدَ هذه الأشجار المختلفةِ في نوعها، المشتركةِ في التّنفير منها، وأنّها "كلّها تنبتُ في الفيافي"[2]، وبدأ بالخَمْطِ وهو مُشتركٌ بين البهائمِ والإنسانِ في الأكلِ والتّجنّب، ثمّ عطفَ عليه نوعًا آخر وهو ما يخصُّ البهائمَ؛ أي: (الأثل) وهو شجرٌ لا ثمرَ له، ثمّ ذكرَ ما يخصُّ الإنسانَ وهو (السِّدر)، مقتصرًا منه على شيءٍ قليلٍ جدًّا يُمكنُ الاستفادةُ القليلةُ منه[3]، إذِ السِّدرُ نوعان؛ أحدُهما: لا يُنْتَفَعُ بِثَمَرِهِ، والآخر: النَّبْقُ[4]، وفي هذا العطف والتّعدّد لهذه الأوصافِ المنفّرة مبالغةٌ في التّنفير من هذه الأرضِ القاحلةِ، وزيادةُ التّحسير لهم في تنكيرها مبالغةٌ في تحقيرِها، وتنفيرِ النّفس منها.

لطيفة التّعبير بالشّيئيّة: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾:

مبالغةٌ في تقليلِ فائدةِ شجرِ السّدرِ وتحقيرِها

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ (شيء) في قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾؛ لأنّه لمّا كان السّدرُ أكثرَ الأنواعِ في الآية نفعًا؛ أرادَ البيانُ القرآنيّ التّنبيهَ إلى أنّ معظمَه لا فائدةَ منه[5]؛ لأنّ كلمة (شَيءٍ) مُؤْذِنةٍ في ذاتِها بالقِلّةِ؛ بل وزادَ التّعبيرُ بها في تقليلِ الفائدة من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 480.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدر).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.

السّدرِ بلفظ ﴿قَلِيلٍ﴾ قلّةً، وللتّنبيهِ كذلك على أنّ المقصودَ بهذا الشّيء هو النَّوعُ الذي لا فائدةَ منه، ولو قال: (وسدر) لشملَ النّوعيْن، وأمّا إن كان المُرادُ بالشّيء ما فيه منفعةٌ قليلةٌ؛ فذلك لتحسيرِ قوم سبأ؛ أيْ: "أوتوه تذكيرًا للنّعم الزّائلةِ؛ لتكونَ حسرةً عليهم"[1]؛ بأنْ يبقى أثرٌ ما منه على الجِنانِ المُبدَلة، يتذاكرونَ به ما كانَ ويتحسَّرون عليه[2]، وقد زاد القِلّةَ مبالغةً تنكيرُ لفظِ (شيء)؛ إذ أفادَ تنكيرَها التّقليلَ، إضافةً إلى التّحقيرِ للسّدر[3].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن سِدْرٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بيانيّةٌ؛ لكونها سُبقتْ بـ(شيء)، وهو لفظٌ مبهمٌ يحتاجُ لبيان، والمعنى: وشيءٍ حالةَ كونه من سِدرٍ[4].

بلاغة الإطناب بلفظ ﴿قَلِيلٍ﴾:

إطنابُ إيغالٍ ختمَ الكلامَ بزيادةِ تقليلِ القليلِ من السِّدرِ قِلّةً

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بذِكْر لفظ ﴿قَلِيلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾؛ لأنَّ القِلّة مفهومةٌ من لفظ (شيء) التي تدلُّ على هذا المعنى؛ وذلك تأكيدًا لقِلّة هذا الشّيءِ القليل من شجرِ السّدرِ، الذي يختلفُ عن الأُكُل الخَمْطِ والأَثْلِ؛ باحتواءِ صنفٍ منه على بعضِ الفوائد؛ لأنّه لو كَثُرَ كان نعمةً لا نِقْمَة[5]؛ يقول ابنُ عاشور: "وزيدَ تَقْليلُهُ قِلَّةً بِذِكْرِ كَلِمَةِ شَيْءٍ، المُؤْذِنَةِ في ذاتِها بِالقِلَّة"[6]، وهذا من إطنابِ الإيغالِ، الذي معناه ختمُ الكلامِ بما يفيدُ فائدةً يتمّ المعنى بدونها[7].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 313.
(3) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 328.
(4) صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 328.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 302.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 171.
(7) بسيونيّ، علم المعاني: 2/ 262.

غرضُ تقديم ﴿مِّن سِدْرٍ﴾ على قوله: ﴿قَلِيلٍ﴾:

في تتابعِ أنواعِ الأشجارِ أثرٌ معنويٌّ وصوتيٌّ

قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فيه تقديمٌ، تقديرُه: (وشيءٍ قليلٍ من السّدر)[1]، وهو تقديمُ صفةٍ على صفة؛ إذ ﴿مِّن سِدْرٍ﴾ صفةٌ لشيء، و﴿قَلِيلٍ﴾ صفةٌ ثانية[2]، وذلك ليكونَ ﴿مِّن سِدْرٍ﴾ أقربَ للخَمْط والأَثْل، بما يُحقّقُ الأثرَ المعنويّ والصّوتيّ لهذه الكلمات بتتابعها، ولكون ﴿قَلِيلٍ﴾ أقربَ لفواصلِ الآيات، كما أنّ بتأخيرِ لفظ ﴿قَلِيلٍ﴾ يتحقّقُ في الفاصلةِ بلاغةُ الإيغال.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعراض والتّولّي:

الإعراضُ أشدُّ من التّولّي، فالإعراضُ لا يكونُ إلّا انصرافًا وتركًا مع التّجاهل وعدمِ الاكتراث، فالإعراضُ أصلُه من العَرْض الّذي يُخالِفُ الطّولَ، ومنه أَعْرَضَ عَنْ فُلانٍ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ: كأنّه انحرفَ عنه، وولّاهُ عُرْضَه؛ أيْ: جانِبَه أو عارِضَه، وولّاهُ عَرْضَهُ، أدارَ ظهرَه له غيرَ مُكترثٍ أو مُهتمٍّ به، وصَدَّ عنه، وتجاهَلَه، وجفاه[3].

الإعراضُ أشدُّ من التّولّي؛ وفيه إساءةُ أدبٍ تتناسبُ مع حالِ أهلِ سبأ

وأمّا التّولّي: فهو أعمُّ من الإعراضِ؛ إذِ التّولّي قد يكون إعراضًا، وقد يكون إقبالًا؛ أيْ: يَكونُ بِمَعْنَى الإعْراضِ، ويَكونُ بِمَعْنَى الاتِّباع[4]، والتّولّي إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولايةِ، وحصوله في أقربِ المواضع، وإذا عُدّي بـ(إلى) يكون بِمَعْنَى الإقبال عَلَيْهِ، وإذا عُدّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وتَرْكِ القُرْب[5].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 495.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 82، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 343، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»